الفصل الثاني

النظم في الكشاف

أريد أن أحدد في هذا الفصل مفهوم النظم وبيان موضوعه كما يصوره كتاب الكشاف وإلى أي مدى يتصل هذا المفهوم بمفهوم علمي المعاني والبيان وعلم الإعراب . ولهذا الغرض تتبعت كلمة النظم في تفسير الكشاف وكلمة علم المعاني وعلم البيان ، ثم أخذت في درسها ومناقشتها ولم يكن من الخير في بحثي هذا أن أذكر النتائج فحسب ، وإنما الخير في عرض هذه المجالات التي ذكرت فيها هذه المصطلحات لأنها ليست واضحة في موضع معين في كتابه فيسهل تصورها وإنما هي مبثوثة هنا وهناك ، وعلينا أن نذكر دائمًا أن الزمخشري يتكلم في التفسير فليس من عمله تحديد المصطلح العلمي وتحريره . وهذا لون من الصعوبة ، قد واجهنا في تحديد هذه المفاهيم ، ولكن الاستقصاء الكامل والمتابعة الدقيقة قد تعيننا على هذه الصعوبة .

وواضح كما بينت أن نظم القرآن قد شغل الدارسين قبل الزمخشري وأن كتبًا تحمل هذه الترجمة قد ظهرت من القرن الثالث ، وأن النظم قد تواردت عليه مفاهيم مختلفة في البيئات الفكرية المختلفة ، فالنظم له مفهوم عند القاضي عبد الجبار وله مفهوم عند علي بن عيسى الرماني وله مفهوم عند القاضي الباقلاني .

ثم إن الإمام عبد القاهر بسط درسه بسطًا علميًّا دقيقًا وقد بينت أنه أفاد كثيراً من جهود العلماء قبله وأنه نظر إلى كلام الخطابي الذي يقول فيه : «وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة لفظ حامل ومعنى قائم ورباط لهما ناظم ، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا وأشد تلاؤما وتشاكلاً من نظمه»[1].

ويقول الخطابي في موضع آخر : «وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني وبه تنتظم أجزاء الكلام ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان» .

كما نظر إلى كلام عبد الجبار وأفاد منه أكثر وقد بسطت هذا في الفصل السابق .

أما الإمام الزمخشري فقد استمد فهمه مما ذكره عبد القاهر الذي تعتبر جهوده تلخيصًا مركزًا لجهود من سبقه .

فنظم الكلام كما يتصوره الزمخشري يعني بيان الروابط والعلاقات بين الجمل وكيف يدعو الكلام بعضه بعضًا وكيف يأخذ بعضه بحجزة بعض .

يقول في قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (البقرة:١-٥) : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ ﴾ الجملة في محل الرفع إن كان ﴿ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ مبتدأ ، وإلا فلا محل لها ، ونظم الكلام على الوجهين أنك إذا نويت الابتداء بـ ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ فقد ذهبت به مذهب الاستئناف ، وذلك

---

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي ص ٢٤ ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن .

أنه لما قيل ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ واختص المتقون بأن «الكتاب لهم هدى» اتجه لسائل أن يسأل فيقول : ما بال المتقين مخصوصين بذلك ؟ فوقع قوله ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ إلى ساقته كأنه جواب لهذا السؤال المقدر وجيء بصفة «المتقين» المنطوية تحتها خصائصهم التي استوجبوا بها من أن يلطف بهم ويفعل بهم ما لا يفعل بمن ليسوا على صفتهم ، أي الذين هؤلاء عقائدهم وأعمالهم أحقاء بأن يهديهم الله ويعطيهم الفلاح ، ونظيره قولك : أحب رسول الله ﷺ الأنصار الذين قارعوا دونه وكشفوا الكرب عن وجهه أولئك أهل المحبة ، وإن جعلته تابعًا لـ «المتقين» وقع الاستئناف على «أولئك» كأنه قيل : ما للمستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى ؟ فأجيب : بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلاً وبالفلاح آجلاً ، فإن قلت : هل يجوز أن يجري الموصول الأول على «المتقين» ، وأن يرتفع الثاني على الابتداء ، و«أولئك» خبره ؟ قلت : نعم على أن يجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضًا بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوة رسول الله ﷺ وهم ظانون أنهم على الهدى وطامعون أنهم ينالون الفلاح»[1] .

فموضوع النظم هنا : بحث علاقة الجملة بالجملة وبيان وجه ارتباطها بها ، والأسرار المعنوية التي وراء هذه الارتباطات ، وإذا كان الإعراب يبين لنا أن ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ مبتدأ و ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى ﴾ في محل رفع خبر لهذا المبتدأ أو أن ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ ﴾ تابع ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ بدل منه ، وجملة «أولئك» لا محل لها لأنها وقعت موقع الاستئناف إذا كان علم الإعراب يبين لنا هذا فإن علم النظم هو الذي يبحث عما وراء هذه الصناعة النحوية ويفسرها ويكشف لنا ألوان المعنى التي وراءها ، ولهذا تراه يقول : وإذا ارتفع الموصوف الثاني على الابتداء ـ وهذا وجه ثالث من التخريجات النحوية ـ يعطي التركيب معنى جديدًا يفهم من عرضه ويكون فيه غمزًا لأهل الكتاب .

---

(١) الكشاف ١/٣٤ .

وعلم النظم هو الذي يبرز الأسرار والنكت في أسلوب القرآن ويكشف الفروق المعنوية الدقيقة بين خصوصيات التراكيب ويربط هذه الخصوصيات بالسياق والغرض العام .

يقول في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ (الزمر:٤٩) : فإن قلت : ما السبب في عطف هذه الآية بالفاء وعطف مثلها في أول السورة بالواو ؟ قلت : السبب في ذلك أن هذه وقعت مسبَّبة عن قوله : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ ﴾ (الزمر:٤٥) على معنى يشمئزون عند ذكر الله ويستبشرون بذكر الآلهة فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأز من ذكره دون من استبشر بذكره ، وما بينها من الآي اعتراض . فإن قلت : حق الاعتراض بأن يؤكد المعترض بينه وبينه ؟ قلت : ما في الاعتراض من دعاء رسول الله ﷺ ربه بأمر منه وقوله : ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ ﴾ (الزمر:٤٦) ثم ما عقبه من الوعيد العظيم تأكيد لإنكار اشمئزازهم واستبشارهم ورجوعهم إلى الله في الشدائد دون آلهتهم كأنه قيل : قل يا رب لا يحكم بيني وبين هؤلاء الذين يجترئون عليك مثل هذه الجراءة ويرتكبون مثل هذا المنكر إلا أنت ، وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ (الزمر:٤٧) متناول لهم ولكل ظالم إن جعل مطلقًا أو إياهم خاصة إن عنيتهم به كأنه قيل : ولو أن لهؤلاء الظالمين ما في الأرض جميعًا ومثله معه لافتدوا به حين أحكم عليهم بسوء العذاب ، وهذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم وإلا بقيت محتجبة في أكمامها . (الكشاف ١/١٠٤) .

فعلم النظم هنا يبين صلة معاني الجمل المعترضة بالكلام الذي وقعت معترضة فيه . فالتسبيب بين آية ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ ﴾ وآية ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ ﴾ واضح وإن اعترضت بينهما هذه الجمل الطويلة لأن الاعتراض تأكيد الكلام وتقريره فهو جزء منه مرتبط به .

ومثل هذا البحث الذي يكون موضوعه علاقة الجمل المعترضة وجلاء هذه العلاقة حتى يظهر اتحاد الجمل والتئام بعضها ببعض وتخصيص هذا البحث بعلم النظم ، وأنه لا يطيق هذا البحث إلا من ارتاض بهذا العلم وتدرب على ذوق هذا النمط من التعبير الذي تتداخل جمله وتقوم بينها روابط قوية خفية وعلاقات وثيقة غامضة يذكرها الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (القصص:٨،٩) يقول : فإن قلت ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ حال فما ذو حالها ؟ قلت : ذو حالها ﴿ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾ وتقدير الكلام : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم في التقاطه ورجاء النفع منه وتبنِّيه وقوله : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ ﴾ .. الآية ، جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه مؤكدة لمعنى خطئهم وما أحسن نظم هذا الكلام عند المرتاض بعلم محاسن النظم[1] .

والكلام المنتظم هو الذي تتضح معانيه ويشف أسلوبه عن مدلوله ، والكلام المتنافر هو الذي تختفي مدلولاته ولا يقف الذهن منها على شيء ومهما تابع الجمل لا يستقيم عنده معنى متسق ، والقرآن العظيم قد يخفى فيه هذا المعنى المتسق إذا وقف الناظر عند ظاهر الآيات ولم يتغلغل في باطنها ، والزمخشري يقف مع هذه الآيات ويبين لنا وجه تلاؤم النظم يقول في قوله تعالى : ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ (ص:١،٢) فإن قلت : ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ كلام ظاهر متنافر غير منتظم فما وجه انتظامه ؟

---

(١) الكشاف ٣/٣٠ .

قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون قد ذكر اسم هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدي والتنبيه على الإعجاز كما مر في أول الكتاب ثم أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدي عليه كأنه قال : والقرآن ذي الذكر أنه لكلام معجز ، والثاني : أن يكون «ص» خبر مبتدأ محذوف على أنها اسم للسورة ، كأنه قال : هـذه «ص» يعني هـذه السورة التي أعجزت العرب ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ كما تقول : هذا حاتم والله ، تريد : هذا هو المشهور بالسخاء ، والله أعلم»[1] .

وبحث النظم هنا هو توضيح المدلول بتقدير المحذوف وتحديد مواقع الجمل في نظام الكلام إذ أن جملة القسم قبل جوابها لا يظهر ارتباطها بقوله تعالى : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ كما لا يظهر ارتباطها بقوله «ص» والذهن عند ذكر القسم ينتظر الجواب ويتوقف متطلبًا له ويعجز عن أن يتمثل للكلام المذكور معنى مستقيمًا واضحًا يستشف منه الخيط الممتد الذي ينتظم هذه الجمل كما يوحي بذلك تساؤل الزمخشري . ومثل هذا النظم الذي يحتاج إلى شيء من الإيضاح حتى يستقيم المعنى في أذهان غير المتخصصين أو في أذهان غير ذوي الفهم النافذ للأساليب الأدبية قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴾ (الزخرف:٢٩،٣٠) .

يقول الزمخشري : فإن قلت : قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتيع ثم أردفه قوله : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ ﴾ (الزخرف:٣٠) فما طريقة هذا النظم ومؤداه ؟ قلت : المراد بالتمتيع ما هو سبب له وهو اشتغالهم بالاستمتاع عن التوحيد ومقتضياته فقال : بل اشتغلوا عن التوحيد حتى جاءهم الحق ورسول مبين ، فخيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها عن غفلتهم لاقتضائها

---

(١) الكشاف ٥٣/٣ .

التنبيه ، ثم ابتدأ قصتهم عند مجيء الحق فقال : « ولما جاءهم الحق جاءوا بما هو شر من غفلتهم التي كانوا عليها »[1] .

وبيان طريقة النظم هنا تعني استقامة المعنى وتوضيح المفهوم من الكلام وربط بعضه ببعض بطريقة بالغة في الفهم والذكاء ، والوسيلة هي التحليل لمحتويات الكلام والكشف عن العلاقات والروابط ، وليست الوسيلة هنا هي الإعراب وبيان موقع الجمل بعضها من بعض من حيث التسبيب والاستئناف أو الاعتراض .

وتجاوب النظم يعني انسجام المعاني وتقاربها ووضوح الوشائج والصلات بينها ، وهذا سمت الأسلوب القرآني ولهذا فصل كتاب الله سوراً ، يقول الزمخشري في بيان الأسرار التي من أجلها كان كتاب الله سوراً : « ومنها ـ أي ومن هذه الفوائد ـ أن التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها البعض وبذلك تتلاحظ المعاني ويتجاوب النظم »[2].

ويذكر تجاوب النظم أيضًا ويقصد به انسجام المعاني ووضوح الوشائج والصلات بينها فإذا لم يكن هذا ظاهراً في التأليف القرآني كشفه الزمخشري وأبان عنه .

يقول في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:٢١) : « فإن قلت : فهلا قيل « تعبدون » لأجل « اعبدوا » أو « اتقوا » لمكان « تتقون » ليتجاوب طرفا النظم ؟ قلت : ليس التقوى غير العبادة حتى يؤدي إلى تنافر النظم وإنما التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده فإذا قال : ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ﴾ للاستيلاء على أقصى غايات العبادة ، كان أبعث على العبادة وأشد إلزامًا لها وأثبت لها في النفوس ، ونحوه أن تقول لعبدك : احمل خريطة المكتب فما ملكتك يميني إلا لجر

---

(١) الكشاف ١٩٥/٤ .

(٢) المرجع السابق ٧٤/١ .

الأثقال ، ولو قلت : «لحمل خرائط المكتب» لم يقع من نفسه ذلك الموقع»[1].

فعدول القرآن هنا عن العبادة إلى نوع خاص منها وهو التقوى التي هي قصارى أمر العابد جعل الأسلوب أقوى والمعنى أوقع كما قال في المثال الذي ساقه ، وذلك لأن الأمر بالعبادة أمر بأداء بعض ما خلقوا من أجله لأنهم لم يخلقوا ليبلغوا في عبوديتهم لله درجة العبادة فحسب ، وإنما خلقوا ليبلغوا في العبادة غايتها وهي التقوى . ومن البلاغة وسداد النظم أن يردف الأمر بما يحث النفس حثًّا إلى الامتثال إليه وقد وقف الزمخشري عند قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (النساء:١) ليسأل نفس السؤال ويجيب نفس الإجابة وكأن هذه قاعدة بلاغية يهتم بتوضيحها في نظم القرآن ، قال : فإن قلت : الذي يقتضيه سداد نظم الكلام وجزالته أن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو إليها ويبعث عليها فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة على التفصيل الذي ذكره موجبًا للتقوى وداعيًا إليها ؟ قلت : لأن ذلك مما يدل على القدرة العظيمة ، ومن قدر على نحوه كان قادرًا على كل شيء ، ومن المقدورات عقاب العصاة فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتقي القادر عليه ويخشى عقابه ، ولأنه يدل على النعمة السابغة عليهم فحقهم أن يتقوه في كفرانها والتفريط فيما يلزمهم من القيام بشكرها ، أو أراد بالتقوى تقوى خاصة وهي أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم فلا يقطعون ما يجب عليهم وصله (الكشاف ٣٥٥/١) .

وكان الزمخشري قد استنبط هذه القاعدة البلاغية في أسلوب الأمر من مثل قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحج:١) فقد جاء عقيب الأمر بالتقوى بما يدفع النفس دفعًا إليها بما صوره من هول هذه اللحظات .

---

(١) الكشاف ٦٦/١ .

ونظم الكلام هنا تأليفه ، وسداد النظم وجزالته مراعاة الأصول البلاغية في هذا النظم أو هذا التأليف ، والبحث هنا كشف واستنباط لهذه الأصول التي تجري عليها أساليب البلغاء .

وللنظم وجه من الحسن يدركه الزمخشري في قوة بناء الأسلوب وشدة تماسكه ، وعبارة الزمخشري فيه تقرب من عبارة عبد القاهر في فصل عقده للنمط العالي والباب الأعظم[1] ويلمح الزمخشري في هذا الصدد أثراً بلاغيًّا لبعض مواقع المصادر . يقول في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (النمل:٨٨) : « فالنظر إلى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه ومكانة إضماده ورصانة تفسيره وأخذ بعضه بحجزة بعض كأنما أفرغ إفراغًا واحدًا ، ولأمر ما أعجز القوى وأخرس الشقاشق ، ونحو هذا المصدر إذا جاء عقيب كلام جاء كالشاهد بصحته ، والمنادى على سداده ، وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما قد كان ، ألا ترى في قوله : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ﴾ و﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ و﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ﴾ و﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ﴾ بعد ما وسمها بإضافتها إليه بسمة التعظيم كيف تلاها بقوله : ﴿ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ، و﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ ، و ﴿ لَا تُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ و﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ (الروم:٣٠) [2] (النمل:٨٨ ، البقرة:١٣٨ ، والزمر:٢٠ ، الروم : ٣٠) .

وقد أشرنا كثيراً إلى اهتمامه ببيان ما ينطوي عليه أسلوب القرآن من شدة الروابط وقوة العلاقات . ولاهتمامه بهذا الأصل البلاغي في نظم الكلام يفضل قراءة على قراءة يقول في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ (فاطر:١٨) : « فإن قلت : ما تقول فيمن قرأ « ولو

---

(١) ينظر : دلائل الإعجاز ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) الكشاف ٣/٣٠٤ ، ٣٠٥ .

كان ذو قربى» على «كان» التامة ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ (البقرة:٢٨٠) ؟ قلت : نظم الكلام أحسن ملاءمة للناقصة لأن المعنى على أن المثقلة إن دعت أحدًا إلى حملها لا يحمل منه شيء ، وإن كان مدعوها ذا قربى ، وهذا معنى صحيح ملتئم ، ولو قلت : ولو وجد «ذو قربى» لتفكك وخرج من اتساقه والتئامه[1] .

قال الشهاب : لا يلتئم معها النظم لأن هذه الجملة الشرطية كالتتميم والمبالغة في أن لا غياث أصلاً ولو قدر المدعو ذا قربى ، ولو قدرته : إن تدع النفس المثقلة إلى تخفيف ما عليها لا تجد معاونًا ولو وجد «ذو قربى» لم يحسن ذلك الحسن[2] .

ونظم الكلام وترتب معانيه تراعى فيه أحوال النفس وتطبيق الكلام على هذه الأحوال وله في هذا نظر ثاقب يدل على بصر بشئون النفس وما يعرض لها من أحوال الشعور والانفعال ، يقول في قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (الزمر:٥٦-٥٩) : «وقوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى ﴾ (الزمر:٥٩) جواب لقوله : ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزمر:٥٧) وبين الزمخشري لماذا تأخر جواب القرينة الثانية فيقول : «فإن قيل : هلا قرن الجواب بما هو جواب له وهو قوله : ﴿ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى ﴾ ولم يفصل بينهما بآية ؟ قلت : لأنه لا يخلو إما أن يقدم على أخرى القرائن الثلاث فيفرق بينهن ، وإما أن تؤخر القرينة الوسطى ، فلم يحسن الأول لما فيه من تبتير النظم بالجمع بين القرائن ، وأما الثاني فلما

---

(١) الكشاف ٤٧٩/٣ .

(٢) حاشية الشهاب الخفاجي ٣٢٢/٧ .

فيه من نقض الترتيب وهو التحسر على التفريط في الطاعة ، ثم التعلل بفقد الهداية ، ثم تمنى الرجعة ، فكان الصواب ماجاء عليه وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب »[1].

والزمخشري يحرص على أن تكون القرائن متجاورة وألا يفصل بينها بما هو جزء إحداها حتى تتلاقى هذه النغمات الحزينة متجاورة متناغمة تتراجع أصداؤها الوالهة في آفاق النفس المتألمة فتمس أعماقها البعيدة ، وأن يكون هذا الفيض من الحزن والأسى والندم الموجع في وحدة واحدة فيكون الكلام أقدر على إثارة النفس وتحريك الوجدان ، ويحرص كذلك على ألا تتأخر الثانية مكان الثالثة لتجاور جوابها لأن ذلك يؤدي إلى اختلال ترتيب الكلام وعدم مطابقته لترتيب المعاني في النفس ، وفي هذا يدرك هذا الفقيه العظيم ترتيب المعاني النفسية ومراتب الأحوال الوجدانية وضرورة ترتيب الكلام على وفقها ونظامها ولكي لا نبعد عن موضوع حديثنا نقول : إن النظم هنا كما في غيره من المواضع هو تأليف الكلام وترتيبه ، وسداد النظم هنا يتطلب منا هذه النظرة النفسية الدقيقة التي تحيط بما تشيعه هذه الآيات المتجاورة وتبعثه نغماتها الحزينة من هذا الفيض الانفعالي الذي ترسله النفس الإنسانية في انسياب وتتابع حينما تواجه هذا المصير المحتوم ، ثم إن الزمخشري يرى أن نظوم الكلام المختلفة توضع بإزاء معان تركيبية مختلفة ويرتبط كل نظم من هذه النظوم في هذه اللغة بمعنى ، فأسلوب الكلام ونظمه يوضع لمعنى كذا ، وكما أن الألفاظ المفردة توضع بإزاء معانيها الإفرادية ويعرفها الخبير بهذه اللغة ، كذلك النظوم توضع بإزاء معانيها التركيبية ويتبين معناها الخبير بهذه التراكيب الممارس لها ويجب أن يكون أدق وأنفذ ، وأن تكون خبرته أوسع لدقة المعنى التركيبي وخفائه . ولهذا يقع الناس في الخطأ ويفهمون من النظم والأسلوب غير معناه وحينئذ يخرجون الكلام عن دلالاته البلاغية الشريفة . يقول

---

(١) الكشاف ٤/١٠٧ .

الزمخشري مفصحًا عن كل هذا في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴾ (الزخرف:٨١) يقول : « وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه وألا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد ، وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها فكان المعلق بها محالا مثلها فهو في صورته إثبات الكينونة والعبادة وفي معناه نفيها على أبلغ الوجوه وأقواها ، ونظيره أن يقول العدلي للمجبر : إن كان الله تعالى خالقًا الكفر في القلوب ومعذبًا عليه عذابًا سرمدًا فأنا أول من يقول هو شيطان وليس بإله ، فمعنى هذا الكلام وما وضع له أسلوبه ونظمه نفى أن يكون الله تعالى خالقًا الكفر وتنزيهه عن ذلك وتقديسه ولكن على طريق المبالغة فيه من الوجه الذي ذكرنا مع الدلالة على سماجة المذهب ، وضلالة الذاهب إليه ، والشهادة القاطعة بإحالته ، والإفصاح عن نفسه بالبراءة منه ، وغاية النفار والاشمئزاز من ارتكابه،ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جبير رحمه الله للحجاج حين قال له: أما والله لأبدلنك نارًا تلظى : « لو عرفت أن ذلك لك ما عبدت إلهًا غيرك» وقد تمحل الناس بما أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد ، المستقل بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه ، فقيل : إن كان للرحمن ولد في زعمكم ، فأنا أول العابدين الموحدين لله المكذبين قولكم بإضافة الولد إليه[1] وقد لاحظنا في كل هذه الدراسة التي تدور حول النظم أن النظم لا يخرج في مدلوله العام عن معناه اللغوي الذي هو التأليف وضم الشيء إلى الشيء كما قال صاحب القاموس[2]. وقد قال الزمخشري في أساسه : أنه يستعمل في ضم الكلام بعضه إلى بعض على سبيل المجاز[3]. كما لاحظنا أن مباحثه تشمل روابط الجمل وعلاقات بعضها ببعض وهذا يعني النظر في معانيها ولمح ما بين هذه المعاني من صلات ، ولاشك أن بحث الفصل

---

(١) الكشاف ٤/٢١٠ . (٢) القاموس ٤/١٨١ . (٣) الأساس ص ٩٧٠ .

والوصل باصطلاح المتأخرين جزء وجزء هين في مباحث روابط الجمل هنا لأننا لاحظنا أن بحث علاقات الجمل غير ناظر إلى كونها ذات محل من الإعراب أو لا ، وغير ناظر إلى كونها معطوفة بالواو أو بالفاء أو غير معطوفة ، كل هذه الأشياء التي اعتبرها البلاغيون مبادئ أساسية لدراسة الفصل والوصل والتي قيدوه بها وجعلوه محدوداً في دائرتها كان أفق هذا البحث أوسع من أن يتحدد بها ، لأن الذي يواجه البيان ويعالجه علاجًا بلاغيًّا لا يستطيع أن يلتزم بهذه الدائرة الضيقة الخانقة ، كما لاحظنا أن دراسة نظم الكلام تشمل ما تألف منه هذا النظم أعني آحاده ومواقع هذه الآحاد وإصابتها في هذا النظم كما في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ (البقرة:٢١) ولحظنا أيضًا أنه ذكر أوصافًا للنظم الجيد ، منها «سداد النظم» و«جزالة النظم» و«تجاوب أطراف النظم» وجعل هذا علمًا وسماه «علم محاسن النظم» كما ذكر أوصافًا للنظم الردىء منها «تنافر النظم» و«تبتير النظم» و«تفكك النظم» وخروجه عن اتساقه والتئامه .

وإذا كان النظم فيما ذكرنا وصفًا لجمل الكلام غالبًا فإننا نجده وصفًا لبناء الجملتين أو الجملة الواحدة ، ونجد الزمخشري يقف عندها يتأمل تأليفها وما جاء عليه نسقها ويستخرج من ذلك المعاني والإشارات ، وهو لا يغفل هنا أيضًا عن مفرداتها بل يضع بصره عليه وينفذ فيها ويستخرج منها ما تحملها وما توحي به ، ثم تكون له نظرته العامة لجملة معناها والغرض منها ، يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحجرات:٣) : «وهذه الآية بنظمها الذي رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسمًا لـ «إن» المؤكدة وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معًا ، والمبتدأ اسم الإشارة ، واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم ، وإيراد الجزاء نكرة مبهمًا أمره ، ناظر في الدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما

فعل الذين وقروا رسول الله ﷺ من خفض أصواتهم ، وفي الإعلام بمبلغ عزة رسول الله ﷺ وقدر شرف منزلته ، وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم واستيجابهم ضد ما استوجب هؤلاء»[1].

وقد ينظر في نظم الجملة أعني ترتيب كلماتها وما يفيده هذا الترتيب ويكشف عن مطابقته لقصد المتكلم وإحاطته بدقيق خواطره وتصويره لخلجات نفسه . يقول في قوله تعالى : ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم ﴾ (الحشر:٢) : «فإن قلت : أي فرق بين «وظنوا أن حصونهم تمنعهم» وبين النظم الذي جاء عليه ؟ قلت : في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياها ، وفي تصيير ضميرهم اسمًا لـ «إن» ، وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالي معها أحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم ، وليس ذلك في قولهم : وظنوا أن حصونهم تمنعهم»[2].

فقولنا : وظنوا أن حصونهم مانعتهم ، لا يصور ما في نفس المتكلم ولا يطابق حاله بخلاف ما جاء عليه ، فإن الخصوصيات التي روعيت في بناء الجملة أشارت إلى كل ما في نفوسهم من خواطر القوة والمنعة والوثوق بحصانتها .

ولو نظرنا إلى مثل هذا التحليل بشيء من التريث والأناة لقادنا إلى مقالة أبي يعقوب في تعريف علم المعاني حيث يقول : وهو ـ أي علم المعاني ـ «تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره»[3] وهذا التعريف قد شذ به الخطيب في عبارته المتداولة حيث قال :

---

(١) الكشاف ٣٨٣/٤ .
(٢) المرجع السابق ٣٩٨/٤ .
(٣) مفتاح العلوم ص ٨٦ .

« وهو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال »[1] وليست مطابقة الكلام لمقتضى الحال إلا قدرة التعبير على تصوير ما يراد تصويره في المقامات المختلفة .

وبعد هذا الكلام الذي أطلناه عن النظم وموضوع درسه نعود إلى ما يفهم من كلمة المعاني ، وكلمة البيان ، وموضوع درسهما لنربط بين هذه المفاهيم.

ونقول في بداية هذا الحديث : إن الزمخشري لم يذكر مصطلح علمي المعاني والبيان في مقدمة تفسير الكشاف فحسب كما يوهم وقوف كثير من الباحثين عند عبارته المشهورة . وإنما ذكر هذا المصطلح قبل تأليف الكشاف وكرر ذكره في كتابه الصغير أعجب العجب وذكره في كتاب المُفَصّل وكرره كثيراً في ديوان شعره ومدح الكثير بتبحرهم في علمي المعاني والبيان . وكل هذه الإشارات لا تكشف لنا مراده بهذين العلمين كشفًا محدداً وإن كانت تدلنا على أن الاصطلاح كان قارًّا في نفسه وواضحًا في إدراكه وأنه لم يقع في مقدمة التفسير عفواً وانسياقًا وراء الكلام . وكنا نظن أن الشيخ العلامة السيد الشريف سيعيننا في هذا الموضوع بكلمة في حاشيته الفائقة على الكشاف عند ذكر هذا الاصطلاح ولكن رحمه الله مر عليها غير ملتفت إليها لأن العناية بتاريخ العلوم لم تكن تلاقي كثيراً من اهتماماتهم التي انصرفت إلى الفن ومسائله .

ونحاول الآن أن نقف على مدلول هذين العلمين في تفسيره .

والزمخشري يذكر علماء المعاني ويعني بهم العلماء القادرين على استخراج المعاني بفهم ونفاذ وذلك باستبطانهم لهذه النصوص وتغلغلهم فيها فهم قوم قد راضوا أذهانهم على هذا النوع من النظر ، يقول في قوله تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ (الأنبياء:٦٢،٦٣) : « هذا من معاريض الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني والقول فيه : إن قصد إبراهيم صلوات الله

(١) بغية الإيضاح ج ١ .

عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم . وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابًا بخط رشيق وأنت شهير بحسن الحظ : أأنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أمي لا يحسن الخط ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة فقلت له : بل كتبته أنت ، كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك وإثباته للأمي أو المخرمش لأن إثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاء به وإثبات للقادر»[1] .

وإذا كانت هذه وظيفة علماء المعاني كما يحددها هذا النص فإنه يمكن أن نقول : إن علم المعاني هو العلم الذي يرشد إلى ما تحمله النصوص الأدبية من دقيق المعاني وخفي الإيحاءات وذلك بدراسة هذه النصوص وتقليب دلالتها على وجوه مختلفة وتوضيح ما يعطيه متن النص أو جانبه . ونلاحظ هنا أن الأسلوب المدروس أسلوب التعريض وهو من فنون علم البيان كما حددها المتأخرون .

ويؤكد هذا المفهوم لهذا العلم قوله في آية : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ (النساء:١٧٢) يقول : «فإن قلت : من أين دل قوله ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ على أن المعنى ولا من فوقه ؟ قلت : من حيث إن علم المعاني لا يقتضي غير ذلك . وذلك أن الكلام إنما سيق لرد مذهب النصارى وغلوهم في رفع المسيح عن منزلة العبودية فوجب أن يقال لهم : لن يترفع عيسى عن العبودية ولا من هو أرفع منه درجة . كأنه قيل : لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية فكيف بالمسيح ، ويدل عليه دلالة ظاهرة بينة تخصيص المقربين لكونهم أرفع الملائكة درجة وأعلاهم منزلة ، ومثاله قول القائل :

---

(١) الكشاف ٣/٩٨ .

وما مِثْلُه مـــمـــــن يُجَـــاوِدُ حـــاتِمٌ ولا البحرُ ذو الأَمواج يلتجُّ زَاخـــرهُ

لا شبهة في أنه قصد بالبحر ذي الأمواج ما هو فوق حاتم في الجود ومن كان له ذوق فليذق مع هذه الآية قوله : ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ** ﴾ (البقرة:١٢٠) حتى يعترف بالفرق البين[١].

ثم ما علاقة هذا المفهوم بمفهوم النظم أو علم النظم ؟

نكون من المتكلفين إذا أقمنا هنا فرقًا فقد أوضحنا أن علم النظم هو الذي يختص بإبراز الأسرار والنكت كما قال ، وليست الأسرار والنكت إلا تلك المعاني الخفية التي تظل محتجبة حتى يبرزها راضة هذا العلم . وليس البحث عن علاقات الجمل وروابط المعاني إلا تجلية لهذه الأسرار وتوضيحًا لها .

ثم إنه قد يخرج مفهوم علم المعاني أو علماء المعاني عنده عن هذا المدلول ويريد به العلم الذي ينظر في فنون الشعر ويحدد معاني كل فن وما يجب على الشاعر أن يقوله إذا أراد المديح وما يجب عليه أن يقوله إذا قصد إلى الرثاء أو الغزل إلى آخر ما هو معروف في فنون الشعر مما ذكره نقاده ، وجماع القول فيها ما ذكره قدامة من وجوب كون المعنى مواجهًا للغرض المقصود غير عادل عن الأمر المطلوب[٢] يقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ **وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ** ﴾ (الحجرات:٧) وهو يحاول إثبات أن الإيمان والكفر مخلوقان للعبد لا لله كما توهمه ظاهر الآية لأن كونهما مخلوقين لله يؤدي إلى أن يمدح العبد بالإيمان وهو فعل الله وأن يذم بالكفر وهو فعل الله ومدح الرجل ينبغي ألا يكون إلا بفعله وقد ذم القرآن من يحب المدح بما لم يفعل فإذا رأيت العرب يمدحون الرجل بالجمال والوسامة وهذه أفعال الله فاعلم أنهم رأوا حسن الوجه دليلاً على حسن الخلق وطهارة النفس وهذه مخلوقة

---

(١) الكشاف ٤٦٢/١ ، ٤٦٣ .

(٢) ينظر نقد الشعر ص ٦١ .

للعبد فلذلك ساغ لهم المدح بالظاهر المخلوق لله لأنه دليل الباطن المخلوق للعبد ، ثم قال : « على أن من محققة الثقاة وعلماء المعاني من دفع صحة ذلك وخطأ المادح به وقصر النعت على المدح بأمهات الخير وهي الفصاحة والشجاعة والعدل والعفة وما يتشعب منها ويرجع إليها ، وجعل الوصف بالجمال والثروة وكثرة الحفدة والأعضاد وغير ذلك مما ليس للإنسان فيه عمل غلطًا ومخالفة عن المعقول »[1].

وكان الزمخشري يشير بهذا إلى قدامة الذي يقول : « ولما كانت فضائل الناس من حيث هم ناس لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان على ما عليه أهل الألباب من الإتقان في ذلك إنما هي العقل والشجاعة والعدل والعفة كأن القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيبًا والمادح بغيرها مخطئًا »[2].

ويشير الزمخشري في موضع آخر إلى أن علماء المعاني هم الذين ينظرون في المعاني ويدرسونها أو يتبينون ما فيها من الصواب والاستقامة أو من الخطأ والتناقض والإحالة ، يقول في قوله تعالى : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا** ﴾ (النساء:٨٢) : « أي لكان الكثير منه مختلفًا متناقضًا قد تفاوت نظمه وبلاغته ومعانيه فكان بعضه بالغًا حد الإعجاز وبعضه قاصرًا عنه يمكن معارضته وبعضه إخبارًا بغيب قد وافق المخبر عنه وبعضه إخبارًا مخالفًا للمخبر عنه ، وبعضه دالاً على معنى صحيح عند علماء المعاني وبعضه دالاً على معنى فاسد غير ملتئم »[3].

فعلماء المعاني في هذا النص هم الذين يعرفون صحة المعاني وفسادها ، وهم في النص السابق الذين يعرفون أنواع المعاني وأجناسها وكيف تلائم الأغراض وفنون الشعر ، وهم في النصوص التي هي أسبق الذين تتغلغل

---

(١) الكشاف ٤/٢٨٨ . (٢) نقد الشعر ص ٦٩ . (٣) الكشاف ١/٤٢٨ .

أذهانهم في النص ، فيستخرجون منه مراميه ومعانيه ويحددون مدلولاته لخبرتهم بالأساليب وخصائص صياغتها ، وعلم المعاني في هذا المدلول الأخير يطابق علم النظم أو علم محاسن النظم بل هما شيء واحد . ثم إن هذه الإطلاقات قد أفاد منها السكاكي ونقلها بنصها وتحير بعض الباحثين في رجوع هذه العبارات إلى مصادرها ، وقال الدكتور أحمد مطلوب : « ويكرر السكاكي نفسه بعض العبارات مثل صناعة علم المعاني وعلماء علم المعاني وأذهان الراضة من علماء المعاني وأئمة علم المعاني ، ولكن لم يحدد معاني هذه العبارات ولا ندري ما المقصود بها ؟ ومن علماء المعاني وأئمته ؟ فلم نعثر في تاريخ البلاغة قبل السكاكي على علماء اختصوا بالمعاني وبحثوا فيه كما بحثه وحددوا موضوعاته ولم تكن البلاغة قبله مقسمة إلى معان وبيان وبديع »[1].

وهذه العبارات منقولة من الكشاف كما رأينا وفي ذلك إجابة عن كل تساؤلات الدكتور مطلوب .

أما علم البيان فإننا نلاحظ إطلاقه على مباحث التشبيه والتمثيل والتصوير والكناية ويتردد هذا ويكثر ، فعلماء البيان هم الذين يفهمون أساليب التصوير والتمثيل وتقع عيونهم على الزبدة والخلاصة من غير نظر إلى ما عليه الألفاظ من حقيقة ومجاز كما في قوله تعالى : ﴿ **وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ** ﴾ (الزمر:٦٧) ويقول في هذا : « ولا ترى بابًا في علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء ، فإن أكثره وعليته تخييلات قد زلت فيها الأقدام قديمًا وما أتى الزالون إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علمًا لو قدروه حق قدره لما خفي عليهم أن العلوم كلها مفتقرة إليه وعيال عليه إذ لا يحل عقدها المورية ولا يفك قيودها المكرية إلا هو ، وكم

(١) البلاغة عند السكاكي للدكتور أحمد مطلوب ، ص ٢١٥ .

آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثة والوجوه الرثة لأنه من تأويل من ليس من هذا العلم في غير ولا نفير ولا يعرف قبيلا منه من دبير »[1].

وهذا الكلام يشير إلى أن علم البيان هو العلم الذي يعين على تأويل المشتبهات من كلام الله ويبين ما جاء منه على التمثيل والتخييل ، ويوضح المراد من هذه الصور وأن الجهل بهذا العلم يؤدي إلى الزلل في العقيدة والقول بالتشبيه ، فهو إذن علم دراسة الصور وما تحمله من الأغراض ، والمرامي ، وعالم البيان هو الذي ينفذ من هذه الصور ويتجاوزها ليصل إلى المراد منها ، وهذا هو موضوعه عند المتأخرين . ولكنا لا نجزم بالقول بأن الزمخشري خصص هذا العلم بدراسة الصور البيانية لأنه هو نفسه يقول في الفصل والوصل : وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه[2]. ويسأل عن علاقة قوله تعالى : ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾ (يس:٢٦) بما قبله ، ويقول : فإن قلت : كيف مخرج هذا القول في علم البيان ؟ ويجيب بأن مخرجه مخرج الاستئناف[3] والبحث في التقديم ومعانيه من وظيفة علم البيان كما يقول في آية : ﴿ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ ﴾[4](الإسراء:١٠٠).

وعلم البيان يرادف نظم القرآن[5] وقد سبق أن لحظنا أن علم المعاني يتناول التعريض في آية : ﴿ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا ﴾ . لهذا لا نستطيع أن نقول إن الزمخشري قد ميز مباحث هذه العلوم ، وغاية ما يمكن أن يقال بعد تتبع ومقارنة : إن إطلاق علم المعاني على مباحث البيان قليل وإطلاق علم المعاني على مباحثه في مصطلح المتأخرين كثيراً ، وأن إطلاق علم البيان على مباحث علم المعاني قليل بالنسبة إلى إطلاقه على مباحث علم البيان ، على أننا نعني

---

(١) الكشاف ١١١/٤ .
(٢) المرجع السابق ٣٣٢/٢ .
(٣) المرجع السابق ٨/٤ .
(٤) المرجع السابق ٥٤٣/٢ .
(٥) المرجع السابق ٤٠/٤ .

هنا علم المعاني الذي يدرس الصياغة وخصائصها ويبين مدلولاتها ، أما علم المعاني بهذا المفهوم الآخر الذي يعني النظر في أنواع المعاني وأجناسها أو النظر في صحتها وخطئها فذلك بعيد قطعًا عن مفهوم علم البيان بل وعن مفهوم علم المعاني بهذا المعنى الذي حدده المتأخرون ونظروا فيه إلى كلامه كما رأينا ، وبهذا يصبح لعلم المعاني مفهومًا مغايراً لمفهوم علم البيان ، ولهذا ساغ له كثرة إطلاق مصطلح علمي المعاني والبيان مع خلطه بين مباحثهما أحيانًا .

والفصاحة ترادف البلاغة ولا نجد لها مفهومًا يخالف مفهوم البلاغة فهي عنده وصف للمعنى يقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ (البقرة:١٧٩) : « كلام فصيح لما فيه من الغرابة وهو أن القصاص قتل وتفويت للحياة وقد جعل مكانًا وظرفًا للحياة» فقوله : كلام فصيح ، معناه : كلام بليغ وكلام حسن . فإذا خرجت الفصاحة في كلامه عن هذا المدلول ، أعني وصف الكلام بالبلاغة والحسن إلى وصف المفرد نبه إلى هذا كما نجده في قوله تعالى : ﴿ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ ﴾ (هود:٨٩) أي لا يكسبكم شقاقي إصابة العذاب ، وقرأ ابن كثير بضم الياء من أجرمته ذنبًا إذا جعلته جارمًا له أي كاسبًا منقول من جرم المتعدي إلى مفعول واحد ، والقراءتان مستويتان في المعنى لا تفاوت بينهما إلا أن المشهورة أفصح لفظًا كما أن « كسبته مالا » أفصح من « أكسبته » ، والمراد بالفصاحة أنه على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدور ، وهم له أكثر استعمالاً[1].

وبهذا تتلاقى مفاهيم الفصاحة والبلاغة والنظم وعلم المعاني وعلم البيان مع مراعاة ما أشرنا إليه . ثم إن الزمخشري الذي درس النظم في كتب من سبقه واستوعبه بل وتمثله من كتابة عبد القاهر وأثراه وأضاف إليه ، لم يكن يغفل الفرق الواضح بين علم النظم وعلم الإعراب فهو يقول : إن النحوي وإن كان

(١) الكشاف ٣٢٩/٩، ٣٣٠ .

أنحى من سيبويه لا يصل إلى غرائب النكت ومستودعات الأسرار في كتاب الله إلا إذا برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان[1] وهذا قول قاطع بالفرق بين علم النحو وعلم المعاني وإن كان نحو سيبويه الذي مازجته كثير من فنون البلاغة ، وقد كان في تطبيقاته لمعارفه النحوية والبلاغية حريصًا على ميز العلمين .

فقد تتخلف القاعدة النحوية المستقلة ولا تنهض بإعراب القرآن لأن بعض وجوه الإعراب الجائزة قد تؤدي إلى إفساد النظم ، والنظم هو ميزة هذا الكلام المعجز وهو هاد يقود النحو ويرشده ويحدد له وجهًا من الإعراب دون وجه ، يقول في قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ (طه:٣٨،٣٩) : « والضمائر كلها راجعة إلى موسى ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت فيه هجنة لما يؤدي إليه من تنافر النظم ، فإن قلت : المقذوف في البحر هو التابوت وكذلك الملقى إلى الساحل ، قلت : ما ضرك لو قلت : المقذوف والملقى هو موسى في جوف التابوت ، حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن والقانون الذي وقع عليه التحدي ومراعاته أهم ما يجب على المفسر »[2].

ويرفض أقوال أئمة النحو في إعراب القرآن لأنها لا تراعي اتساق نظمه ، يقول في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الزخرف:٨٨) : « وقيله : قرئ بالحركات الثلاث وذكر في النصب عن الأخفش أنه حمله على : أم يحسبون ألا نسمع سرهم ونجواهم وقيله ، وعنه وقال قيله ، وعطفه الزجاج على محل الساعة كما تقول : عجبت من ضرب زيد وعمرًا ، وحمل الجر على لفظ الساعة والرفع على الابتداء والخبر ما بعده ، وجوز عطفه على علم الساعة على تقدير حذف المضاف ومعناه : عنده علم الساعة

---

(١) الكشاف : المقدمة ج١ ص(ك) . (٢) المرجع السابق ٤٩٩/٣ .

وعلم قيله . والذي قالوه ليس بقوى في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضًا ومع تنافر النظم وأقوى من ذلك وأوجه أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه والرفع على قولهم : أيمن الله وأمانة الله ويمين الله ولعمرك ، ويكون قوله ﴿ **إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٌ لَّا يُؤۡمِنُونَ** ﴾ جواب القسم»[1] .

وقد تجد النظم في كلامه يقرب من الإعراب حتى تحسبهما مترادفين وإذا دققت النظر بَدَا لك وجه الفرق بينهما ، يقول في قوله تعالى : ﴿ **وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ** ﴾ (النساء:٦):« فإن قلت كيف نظم هذا الكلام ؟ قلت : ما بعد ﴿ **حَتَّىٰٓ** ﴾ إلى ﴿ **فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ** ﴾ جعل غاية للابتلاء وهي « حتى » التي تقع بعدها الجمل كالتي في قوله :

فما زَالتِ القَتْلَى تَمُجُّ دماؤُها بدِجْلَة حتى ماءُ دِجْلَة أَشْكَلُ

والجملة الواقعة بعدها جملة شرطية لأن « إذا » متضمنة معنى الشرط وفعل الشرط ﴿ **بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ** ﴾ وقوله : ﴿ **فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ** ﴾ جملة من شرط وجزاء واقعة جوابًا للشرط الأول الذي هو ﴿ **إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ** ﴾ فكأنه قيل : وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم فاستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشد»[2] .

والزمخشري في هذا النص لما أراد أن يبين نظم الكلام لم يزد عن إعرابه وكأنه يقصد بنظمه إعرابه ، ولكن الذي نراه أن هنا فرقًا بين النظم والإعراب وأن قوله « كيف نظمه » يراد به السؤال عن استقامة معنى الكلام ووضوح المراد منه ، فإذا كان الجواب : هو إعراب النص ، فلأن الإعراب هو الذي يكشف لنا المعنى في مثل هذا التركيب الذي ألقى عليه تداخل أدوات الشرط شيئًا من الغموض .

---

(١) الكشاف ٤/٢١١-٢١٣ .

(٢) المرجع السابق ١/٣٦٥ .

ونجد هذا التقارب بين النظم والإعراب في قوله في آية : ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ ﴾ (الأحقاف:١٠) : فإن قلت : أخبرني عن نظم هذا الكلام لأقف على معناه من جهة النظم ؟ قلت : الواو الأولى عاطفة لـ« كفرتم » على فعل الشرط كما عطفته « ثم » في قوله تعالى : ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ ﴾ (فصلت:٥٢) . وكذلك الواو الأخرى عاطفة لـ« استكبرتم » على « شهد شاهد » وأما الواو في « وشهد وشاهد » فقد عطفت جملة قوله ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ ﴾ على جملة قوله ﴿ كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم ﴾ ، ونظيره قولك : إن أحسنت إليك وأسأت وأقبلت عليك وأعرضت عَنِّي لم نتفق في أنك أخذت ضميمتين فعطفتهما على مثليهما[1]. لم نتفق من تمام المثال ، وقوله في أنك متعلق بقوله ونظيره .

فالنظم هنا مدخل لفهم المعنى لأنه يكشف عن نسق المعاني ويحدد أجزاءها ويربط جملة بجملة ثم يربط الجملتين أو الجمل بما قبلها وهذا غير عطف الجمل بعضها على بعض دون نظر إلى هذا الترابط القائم بين جميعها.

ومن السهل أن يتصور الباحث أن النظم هنا معناه الإعراب لأنه لما سأل عن نظم هذا الكلام أجاب بإعرابه فكان السؤال كما قلنا في النص السابق سؤال عن الإعراب وعن بيان المعطوف والمعطوف عليه وهذا شأن النحو ، والواقع أن بيان النظم هنا كشف عن معنى الإعراب لا عن الإعراب وبحث عما وراء النحو من نسق المعاني وترابطها .

والزمخشري قد يلقى على النص نظرتين نظرة يتناول فيها إعرابه ونظرة يستخرج منها مدلولاته وإشاراته ، والنظرة الأولى نظرة علم الإعراب

---

(١) الكشاف ٤/٢٣٧ .

أو يقتضيها علم الإعراب والثانية نظرة علم البيان ، يقول في قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِ ﴾ (الإسراء:١٠٠) : « لو » حقها أن تدخل على الأفعال دون الأسماء فلابد من فعل بعدها في ﴿ لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ ﴾ وتقديره : لو تملكون ، فأضمر تملك إضماراً على شريطة التفسير وأبدل من الضمير المتصل الذي هو الواو ضمير منفصل وهو « أنتم » لسقوط ما يتصل به من اللفظ فـ« أنتم » فاعل الفعل المضمر و« تملكون » تفسيره وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب،فأما ما يقتضيه علم البيان فهو : أن « أنتم تملكون » فيه دلالة على الاختصاص وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ ، ونحوه قول حاتم : « لو ذات سوار لطمتني »، وقول المُتَلَمِّس : « ولو غير أخوالي أرادوا نقيصتي » وذلك لأن الفعل الأول لما سقط لأجل المفسر برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر[1] .

فعلم الإعراب يبين جريان الأسلوب على طريقة القوم ومطابقته لقواعد النحو ، فإن من قواعده المقررة أن أدوات الشرط لا تدخل على الأسماء ، والظاهر في الآية يخالف هذه القاعدة فلزم تقدير فعل ، وعليه يفترضون أن أصل التعبير كان كذا ثم صار إلى ما أشار إليه الزمخشري وهنا تنتهي مهمة علم الإعراب .

أما استخراج المعنى الذي أومأ إليه هذا الحذف أو ظهور المسند إليه في صورة المقدم بعد هذا الحذف وإن كان في الحقيقة مؤخراً بالنسبة لفاعله المحذوف فهو من عمل علم البيان لا علم الإعراب .

وبهذا تتضح لنا الفواصل بين علم الإعراب وعلم البيان . وقد أشار العلوي إلى هذا الفرق بقوله : فإن النحوي وصاحب علم المعاني وإن اشتركا في تعلقهما بالألفاظ المركبة لكن نظر أحدهما مخالف لنظر الآخر فالنحوي ينظر

---

(١) الكشاف ٥٤٣/٢ .

في التركيب من أجل تحصيل الإعراب كمال الفائدة ، وصاحب علم المعاني ينظر في دلالته الخاصة وهو ما يحصل عند التركيب من بلاغة المعاني وبلوغها أقصى المراتب[1] .

أما علم اللغة فمن الواضح أن مفهومه وموضوعه لا يلتبسان بمفهوم علم المعاني ولا بموضوعه حتى يتناوله حديثنا في هذا الفصل الذي نحاول فيه تحديد مفاهيم مختلفة وبيان ما بينها من صلات ، ولكنني رأيت الزمخشري يشير إلى ضرورة معرفة هذا العلم والبصر به قبل التصدي لمعرفة بلاغة القول ونظمه ، وأنه إذا لم تتحدد معاني المفردات تحديدًا واضحًا فإنك لا تستطيع أن تستشرف مواطن الحسن والبلاغة ، وكأن الزمخشري يوجب على البلاغي أن يستوعب هذه اللغة وأن يحيط بأوضاعها ، وهذا يذكرنا بحديث المتأخرين في مقدمة البلاغة حينما يقولون : إن علم اللغة يحترز به عن الغرابة ، وإن علم الصرف يحترز به عن مخالفة القياس ، وإن علم النحو يحترز به عن ضعف التأليف ، فجعلوا هذه العلوم من لوازم البلاغة ، كذلك الزمخشري هنا يضع علم اللغة هذا الموضع . يقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ **ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ (البقرة:١٥) : « من مد الجيش وأمده إذا زاده وألحق به ما يقويه ويكثره ، وكذلك مد الدواة وأمدها : زادها ما يصلحها ، ومددت السراج والأرض إذا استصلحتهما بالزيت والسماد ، ومده الشيطان في الغي وأمده إذا وصله بالوساوس حتى يتلاحق فيه ويزداد انهماكًا فيه . فإن قلت: لم زعمت أنه من المدد دون المد في العمر والإملاء والإمهال ؟ قلت : كفاك دليلاً على أنه من المدد دون المد قراءة ابن كثير وابن محيصن « ويمدهم» وقراءة نافع وإخوانهم « يمدونهم» ، على أن الذي بمعنى أمهله إنما هو مَدٌّ له مع اللام كـ « أملي له» ... فإن قلت : فما حملهم على تفسير المد في الطغيان

---

(١) الطراز ١/١٧ .

بالإمهال وموضوع اللغة كما ذكرت لا يطاوع عليه ؟ قلت : استجرهم إلى ذلك خوف الإقدام أن يسندوا إلى الله ما أسندوا إلى الشيطان ، ولكن المعنى الصحيح ما طابقه اللفظ وشهد بصحته وإلا كان منه بمنزلة الأروى من النعام ، ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه ، والبلاغة على كمالها ، وما وقع به التحدي سليمًا من القادح ، فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل»[1] .

وبهذا نكون قد بينا مفهوم علم النظم وعلم المعاني وعلم البيان وموضوع دراستهم ثم صلتهم بعلم الإعراب وعلم اللغة .

* * *

(١) الكشاف ١/٥١، ٥٢ .